ماجد العبادي ..

يبوح بمحطات حياته، تاريخًا وغربةً وسفرًا

الجزء الأول

إعداد: ماجد بن عبد الله العبادي

رسم جَدِّي قُبلةَ الوداعِ على قلعةِ نزوى في العام 1880 تقريبا مودعًا جبالَها وسهولَها وغيمةً قادمةً تحملُ بُشرى المطرِ، فقد كان رفقاءُ الرحلةِ بانتظارِهِ عند (فرق)

مضتِ السُّنونُ كأنها لمحات وغمضة عين انتبهت وأنا رجل يافع يجوب الأرض البعيدة عن نشأته ومرتع صباه، أيام أذكر تفاصيلها وغربة ورحيل بين مدن مختلفة، بدءًا من الجد الذي هاجر من سلطنة عُمان في أواخر القرن التاسع عشر، حاملاً معه عبقَ نزوى وحنينَ دارس وسوقَها الذي تجوَّل فيه منذ صغره، ونخيلها الطِّوال التي تسقى بمياه الأفلاج النقية التي طالما ترسمتها في خيالي قبل أن أراها حق اليقين بعد زمن طويل.

حياتي محطات متتالية، اتسمت بالكفاح والمعاناة، أذكرها سرداً وتفصيلا في بعض الأحيان استدلالًا على قساوة الظروف التي مررت بها، والتي قادتني إلىَ حياةٍ أفضل بعد ذلك وأن الإرادة ذات الهدف الواضح والجلي لا تثنيها المتاعبُ ولا تردها التحدياتُ مهما كانت.

جدي المهاجر.. بلا رجعة

رسم جدي حمد بن ناصر بن عامر العبادي قبلةَ الوداع على قلعةِ نزوى في العام 1880 تقريباً، والتفت مودعاً جبالها وسهولها وغيمة قادمة تحمل بشرى المطر، فقد كان رفقاء الرحلة بانتظاره عند (فرق) لحمل أمتعتهم على جِمالٍ قويةٍ لتصل بهم إلى مطرح، الميناء النشط تجاريا، وقتها كان عهد السلطان فيصل بن تركي بن سعيد (4 يونيو 1888 إلى 9 أكتوبر 1913) وفي عهده وقَّع مع الإنجليز الاتفاقية العمانية البريطانية للصداقةِ والملاحةِ والتجارة، مما أتاح الكثير من النشاط والحركة لاسيما بين عمان وشرق أفريقيا، حيث كانت وجهتهم زنجبار المزدهرة آنذاك في آخر عهد السلطان برغش بن سعيد (1870 إلى 1888) وبداية عهد السلطان خليفة بن سعيد من (1888 إلى 1890).

وصلت السفينةُ التي تقلهم إلى زنجبار، فكانت استراحتهم في فروضاني حيث يصل الجميع بعد رحلةِ سفر طويلة مليئة بالأخطار والمجازفات، وهناك التقوا بجموع أخرى قادمة من عُمان، فكان الرأي التوجه إلى بيت العجائب؛ للسلام على سلطانها لأن بعض المسافرين يحملون بعض الأمتعة إلى سكان القصر من أقاربهم وأصدقائهم.

استقبلهم السلطان خليفة بن سعيد ورحب بهم واستمع إلى أخبار عُمان وعلومها وسألهم عن نزوى وأفلاجها وقيضها وتمورها، فكان جَدِّي المتحدث اللبق الذي اختصر الرحلة ورفع إليه سلام الجميع ودعاؤهم لزنجبار بالازدهار والتقدم، ثم استأذن الوفدُ إلى وجهات مختلفة.

حكم السلطان خليفة بن سعيد زنجبار في (17/رجب/1305هـ . 26/مارس/1888م) بعد وفاة أخيه السلطان برغش، وقد وقَّع على معاهدةٍ مع الشركة الألمانية الأفريقية، ومنحَ بمقتضاه الألمانَ الحقَ في تحصيل الرسوم الجمركية والضرائب على طول ساحل تنجانيقا في 1888م، مما مكَّن الألمان من التحكم بطرق التجارة مع زنجبار، وإدارة شؤون البلاد كما كانت في حكم السلطان برغش، في أيامه طالب عرب الجزيرة الخضراء برفع الضريبة التي وضعها السلطان برغش على القرنفل ووعدهم

بتخفيض تلك العشور الكبيرة لكن وزراءه عارضوه، ثم انطلقت ثورة الشيخ بشير ابن سالم الحارثي ضد الألمان في باغ مويو (بوجامايو) وبنغاني، نال السلطان خليفة ابن سعيد وسام فارس الصليب الكبير الفخرية (وسام القديس مايكل والقديس جورج) من بريطانيا، وتوفي في 23/جمادى الآخر/ 1307هـ، وكان عمره 36 عاماً ومدة حكمه سنتان إلا أربعة وعشرين يوماً.

استقر جدي حمد بن ناصر حوالي 6 أشهر بزنجبار، تعرف فيها على واحات الجزيرة الأم أونجوجا وشقيقتها بيمبا ونشاطهما الاقتصادي القائم على زراعة القرنفل، حيث كانت من أبرز التحولات التي رافقت استقرار السيد سعيد بن سلطان في زنجبار زراعة القرنفل وتشجيع السيد سعيد على زراعته في كل من زنجبار وبيمبا حتى أضحى القرنفل المحصول الرئيسي الذي تنتجه زنجبار.

من هنا بدأ القرنفل يشكل نقطة تحول كبيرة في حياة العمانيين وحدد دورهم الاقتصادي وشكل مسارهم الاجتماعي، فنجاح المحصول وما جلبه من ثراء دفع الكثير من العمانيين إلى التحول من التجارة إلى الزراعة ومن قادة للقوافل البحرية إلى ملاك للأراضي .1

لقد أعجب جدي بزنجبار وراق له المكان، ولكن لم يفضل الاستقرار بها، فكانت بروندي هي مقصده الأخير للاستقرار والعيش، وكعادة العمانيين القادمين من عمان، عُرض عليه الزواج؛ لأنه سافر بدون زوجته، فتم له ذلك فتزوج من آمنة بنت سالم بن ماجد الحجرية التي كانت رفيق سفره وساعده الأيمن في رحلته إلى بروندي واستقراره هناك.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، فركب جدي البحر إلى تنجانيقا في مركب شراعي أمضى ساعات طويلة في عرض البحر حتى يصل إلى ميناء دار السلام، مع أن المسافة الحالية لا تزيد على الساعتين بفضل تطور النقل البحري.

أمضى الجد أياما في تنجانيقا بانتظار توفر وسائل النقل إلى بروندي، فكان له ذلك بعد طول انتظار، فانطلق ورفقاؤه عبر طريق طويل وشاق يحملون أمتعتهم على الحمير والبغال مشيا على الأقدام مرورا بمدن كثيرة أهمها (موروغورو) و (دودوما) و (اوجيجي) و(تابورا) و (كيجوما)، ثم الولوج إلى (بوجمبورا) عاصمة بوروندي، التي كانت تسمى (اوزومبورا) استمرت الرحلة أكثر من سنتين من المشي والاقامة المتقطعة في مختلف المدن والقرى الواقعة على الطريق، ورزق الجد بطفلين في تلك الرحلة الشاقة، الفضل ابن حمد الذي ولد في تابورا وسعيد بن حمد الذي ولد في أوجيجي، وللقارئ حرية تخيل تلك المسافات التي قُطعت مشياً والتي تزيد على 2000 كم، ومعاناة الحمل والولادة وتربية الأطفال بدون استقرار طويل في مكان واحد.

الاستقرار في بوروندي

مثلت بوروندي وبقية الدول المطلة على البحيرات العظمى لاسيما بحيرتي تنجانيقا

---

1 - الكيومي، سليمان بن سعيد، قراءات في التاريخ الاقتصادي العماني، ص 117

وفيكتوريا، ملاذا واسعا لآلاف المهاجرين من عُمان واليمن على وجه الخصوص وكذلك المهاجرين من شبه القارة الهندية، وكانت أخلاقهم السمحة وسلوكهم الرزين السبب في نشر الإسلام وتعاليمه في المجتمع الأفريقي حيث انتشر الإسلام مناطق البحيرات العظمى في عهد السلطان سعيد بن سلطان، بعد أن كان الإسلام محصورا في المناطق الساحلية من شرق أفريقيا التي وصلها الإسلام في عهده الأول في القرن الأول الهجري بواسطة العمانيين، وكان ذلك من خلال التجار العمانيين الذين قاموا بتسيير القوافل التجارية عبر المسار الشمالي الذي ينطلق من مدينة ممباسا في كينيا إلى المناطق الشرقية لأوغندا، والمسار الأوسط الذي ينطلق من الأماكن المقابلة لجزيرة زنجبار وهي: تانغا وبنغاني وباغامويو، ويتجه هذا المسار إلى منطقة تابورة التي كانت تُعد المحطة الأولى للقوافل التجارية العمانية، ومن تبورة تتجه القوافل شمالاً إلى جنوب أوغندا وإلى رواندا وبروندي، وتتجه جنوباً إلى الكونغو وزامبيا وزمباوي عبر منطقة الوجيجي وعبر بحيرة تنجنيقا، وهذا المسار هو الأكثر فاعلية وتأثيرا.

حيث كان لتلك المسارات تأثير كبير تمثل في التخطيط العمراني والازدهار التجاري ودخول الاسلام إلى المنطقة. 2

كما أن أول الاكتشافات والدلائل الأثرية تظهر وجود علاقات تربط بين منطقة الساحل الأفريقي الشرقي وبين منطقة الداخل الشرقي ترجع إلى سنة 1200 ميلادية وما بعدها. كما تعود جذور الشبكات التجارية الداخلية التي وفرت المواد المتبادلة بين هذه المناطق إلى تقاليد محلية انتشرت منذ العصر الحديدي وتواصلت إلى غاية القرن التاسع عشر، عندما جاء المسلمون العرب والتجار السواحليون وسبروا أغوار مناطق أفريقيا الشرقية والوسطى. 3

كما أن الإسلام لم يدخل إلى المناطق الداخلية في شرق أفريقيا قبل القرن التاسع عشر، عندها أصبحت المنطقة الساحلية جزءا من الإمبراطورية العمانية، حيث اتخذ السلطان سعيد بن سلطان جزيرة زنجبار مقرا له وعاصمة لإمبراطوريته، وبعد أن وطد العمانيون أركان حكمهم ووسعوا رقعة نفوذهم لتشمل جميع الأراضي الساحلية سعوا إلى تقوية العلاقات التجارية مع المناطق الداخلية، وهو ما أدى إلى إرسال بعثات تجارية إلى الداخل منذ ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، وكان التجار العرب يتوغلون إلى داخل القارة، وقد شهدت فترة البوسعيديين في هذه المنطقة مرحلة مهمة من مراحل انتشار الإسلام في شرق أفريقيا. 4

---

2 - السيابي، أحمد بن سعود السيابي، الإسلام في مناطق البحيرات العظمى، مؤتمر الحضارة والثقافة الإسلامية والدور العماني في دول البحيرات العظمى الأفريقية، بوروندي، 2014.

3 - تيموثي انسول، وجهات نظر أثرية حول العلاقات بين الساحل الأفريقي الشرقي ومنطقة البحيرات العظمى/القرن الأفريقي الشرقي.1900-1200 ميلادية، مؤتمر الحضارة والثقافة الإسلامية والدور العماني في دول البحيرات العظمى الأفريقية، بوروندي، 2014.

4 - إبراهيم عبد المجيد محمد، العمانيون وانتشار الإسلام في أوغندا في القرن التاسع عشر، مؤتمر الحضارة والثقافة الإسلامية والدور العماني في دول البحيرات العظمى الأفريقية، بوروندي، 2014.

ذلك التاريخ الكبير ووجود الكثير من العمانيين الذين يعملون هناك لاسيما في التجارة جعلت الجد يستقر في بروندي وأنجب والدي عبد الله وعمتي رقية وكذلك عمي صالح، هؤلاء الثلاثة ولدوا في بوروندي بالتحديد في منطقة الآسيويين أو منطقة العرب ويطلق عليها أيضا وارابوني، في حارة تسمى كابوندوا، حيث تسكن في هذه المنطقة أربع جنسيات، منها الجنسية العمانية السائدة هناك ومنها الجالية الهندية والباكستانية وأيضا الجالية اليمنية حيث كانت أقل عدداً.

كان جدي حمد متعلما ومثقفا باطلاعه على الكثير من الكتب التي تقع تحت يديه، لاسيما أن اشترى كتبا كثيرة من زنجبار وقت وصوله وإقامته القصيرة هناك، فكانت الكتب متوفرة وساعدت الظروف على استغلال علمه ومواهبه في تعليم الأهالي الذين يفدون إليه من كل مكان لتعلم اللغة العربية والقرآن الكريم، فكان منزله ملتقى لطلبة العلم، يتبادلون ما تيسر لهم من أوراق وكتب، وما يأتي به المسافرون من زنجبار، حيث كانت المطبعة السلطانية التي تُعد اقدم المطابع في الشرق الأفريقي، أنشأها السلطان برغش بن سعيد بن سلطان (حكم: 1870 – 1888) بزنجبار سنة 1882 م واستمرت تحت إشراف الحكومات المتعاقبة حتى أتى عليها الانقلاب سنة 1383هـ (1964م) فدمرها .

كانت المطبعة إحدى ثمرات سياحة السلطان برغش في الأقطار العربية والأوروبية سنة 1294هـ (1877م) .فقد رأى ما عليه المطابع في بلاد مصر والشام فعزم على إدخالها إلى بلاده .فابتاع سنة 1299هـ (1882) مطبعة مجهزة بكل اللوازم من مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت واستقدم لها عمالا لبنانيين لإدارتها وتشغيلها وتدريب الموظفين على استعمالها وأشرف بنفسه على مباشرة الطبع فيها وكلف بعض العلماء العمانيين المعتنين بالتراث بالإشراف على الطباعة ومراجعة الكتب وتصحيحها. أبرزهم: يحيى بن خلفان بن أبي نبهان الخروصي (ت:1322هـ/1904م)وابو مسلم ناصر بن سالم البهلاني (ت:1339هـ/1920م) . 5

---

5 - الموسوعة العمانية، وزارة التراث والثقافة، 2014.

وتأثرا بتلك الكتب التي تضم دواوين شعرية لشعراء عمانيين وعرب، برع عمي صالح في نظم الشعر، حيث كان له اهتمام واسع في هذا المجال، بل كان يبحث في المكتبات الشحيحة وقتها عن أي ديوان شعر ليقتنيه.